

المجتمع والفنون

بقلم الأستاذ س. ق

تصاب الإنسانية في بعض الفترات بعصدمات قوية وأزمات حادة فتشك في قيمة الحياة وفي عناصر الخير والجمال ، وعندئذ تضيق آفاقها وتضيق آمالها ، وتنكش في دائرة ضيقة من الصراع الأرضي المحدود ، وتصبح حياتها أشبه بحياة الوحوش المتعركة ، لا هدف لها إلا مطالب النظم والدم ، ووسائل العيش والبقاء .

في هذه الفترات القاسية يتسأل الناس : ما قيمة الفنون ؟ وحين لا يجدونها تنجي ما هم فيه من صراع أرضي على الواقع المحدود ، ولا تستغل بما يستغلون به من هموم صغيرة بالقياس إلى أغراض الحياة العليا وأهداف الكون الكبيرة وهموم الإنسانية العظيمة ، عندئذ يحاولون تسخيرها في أغراضهم وحصرها في آفاقهم ، فيطلبون إليها أن تقوم على خدمة هذه الأغراض . وبتعبير آخر أن تكون في خدمة المجتمع !!!

والمجتمع في كل آن هو هذا الجيل الذي يعيش في عصر من العصور ، هو هذه الفترة المحدودة من الزمان وهذه الفئة الخاصة من الناس ، وهذه الظروف والأحوال الراحنة القابلة للتغير والزوال . والفنون مطالبة إذن أن تحصر نفسها في مطالب هذه الفترة القصيرة وهموم هذه الفئة القليلة وحدها هذه البيئة المحدودة ، وإلا فهي لغو لا نفع له ، وهذر لا غناء فيه ! والحنة التي يجتازها العالم اليوم هي إحدى هذه الفترات القاسية التي تمر بالإنسانية بين الحين والحين ، ثم تجتازها سالمة أو محطمة ، ولكنها في كلتا الحالتين تنتعش من جديد ، وتخلق من جديد ، وتعود إلى آفاقها العالية وآمالها الواسعة فتطلب إلى الفنون أغراضا أعلى من هذه الأغراض ، وآفاقا أسمى من آفاق الطعام والشراب .

وكصدي لبعض الآراء في الخارج تتردد الآن في مصر بعض الأصوات تهتف بالفنون أن تحصر جهودها في خدمة المجتمع ، فلا تتراد آفاقا أخرى غير آفاق الصراع بين الطبقات ، ولا تنسج إلا الفبار التائر من معركة الخبز ، ولا تعرف الإنسانية إلا القطعان المتصارعة حول العيش في هذا الجيل من الناس وفي تلك الفترة من الزمان .

تقول هذه الفئة المحدودة النفوس الضيقة الأحاسيس : إن الآداب الإنسانية العالية في جميع اللغات عاديات أولى بها أن توضع في المتاحف ، ليستغل الناس جميعا بدراسة المبادئ الاشتراكية وما إليها ، وأن "الأبراج العاجية" عبث وخول لا ينبغي لأديب أن يعيش فيه والعالم

يصطرح على الحياة ، وأن دراسة شكسبير والمتنبى ودانتي والممرى وأمثالهم مضیعة للوقت وأولى منها دراسة "كارل ماركس" أو "فرويد" أو حياة "فورد" !

. كأن الإنسانية لاتسع هؤلاء وهؤلاء ، وكأن الحياة تضيق بفريق منهم دون فريق ، بينما الكون — لو كانت نفوسهم أفسح من هذا — محتاج الى الجميع ، ولكل فريق وظيفة يؤديها الإنسانية لاتغنى عنها وظيفة الفريق الآخر في كل عصر وجيل .

ولحسن حظ الإنسانية أن هذه النزعات الموقوتة وتلك الصيحات المحدودة لا تقضى على الآفاق العالية الواسعة التي يرتادها كبار الفنانين ، فما يزال فريق منهم في كل عصر غير عاجي بما يحيط به من أحداث قريبة ، وغير منغمس في تياراتها المحدودة . وهؤلاء هم الخالدون ، بينما يفنى أدياء المجتمع وفنانو المناسبات ، لأن المجتمع متغير والمناسبة زائلة والفن الإنساني الرفيع هو وحده الذي يعيش ويخلد بعد انقضاء المناسبات والظروف .

يروى عن "جيتي" شاعر الألمان الأكبر أن "أكرمان" قد سمع بأنباء ثورة يوليو الفرنسية فقصده أن يزوره ويتحدث إليه فبادره جيتي عند دخوله قائلاً " ! آه حسن . ما رأيك في هذا الشأن العظيم ؟ لقد أرسل البرلمان حممه واشتعلت النار في كل شيء . وليست هذه بعد محاضرة في حجرة مسورة " فقال " أكرمان " " إنه لحادث مرعب ولكن ماذا يتوقع من وزارة كمثلك إلا أن يؤول الأمر الى نفى الأميرة المالكة ؟ " . فعجب جيتي وقال له " وكأنه يتهمك يا صديق العزيز جدا ! يلوح لي أننا لانتفاهم . فما عن هذا تكلمت وإنما أتكلّم عن أمر آخر إنما أتكلّم عن البحوث التي بدأت بين كوفيه وجفرى سانت هيلر في جلسة المجمع الدائمة " يشير الى بحوث هذين العالمين في أصل الأنواع (١) .

فهذا أديب عالمي كان يعتصم ببرجه العاجي والثورة الفرنسية تقلب أوضاع الحياة جميعها فلا يكاد يحس بها ولا تساوى أحداثها عنده ما تساويه مناظرة علمية بين عالمن من علماء زمانه . أفكان جيتي أديبا عابثا لا حيا يعنى بالمعاديات ؟ أم كان أديبا عالميا يفنى الاجتماعيون وناثرهم ويبقى خالدا على الأيام ؟

ولست أعنى أن أقول : إن كل أديب كبير يجب أن يكون كما كان جيتي ، ولكن أعنى أن الإنسانية في حاجة الى هؤلاء كحاجتها الى الفنانين الآخرين الذين ينغمسون في أحداث العصر ويتأثرون بمؤثرات البيئة ويشرعون فنونهم للتضال فيما يتاضل فيه أهل الجيل من هموم .

والشعور بالآلام الإنسانية وبمحاجات المجتمع فضيلة نفسية لا شك فيها ، ولكن الفنان الكبير يحس بها على نحو خاص وتبدو في إنتاجه بلون معين ، فقد لا يكون لسان حال طائفة

مغبونة ، ولكن الآلام المدوية من حوله تظهر في فنه . تظهر في الألوان القاتمة التي تظلل آثاره وتخلل إنتاجه ، ولوم يشر بكلمة واحدة إلى هذه المسائل الواقعة . ومن هنا تصبح هذه الآثار عملا إنسانيا عاما يبقى بعد قوات مناسبه .

والافتقار في صراع المجتمع وتوجيهه وظيفة يجب أن يقوم بها بعض الفنانين ، ولكن لا يجوز أن يطالب بها جميع الفنانين لأنها ناحية واحدة من نواحي الحياة الكثيرة ، وغرض واحد من أغراض الإنسانية المتعددة ، فقصر الفنون على أداء وظيفة واحدة تضيق لدايرتها وتحطم لأجنتها وحبس لها في نطاق ضيق لا ترتضيه .

على أن نشأة الفنون وتطورها يتعارضان مع حصرها في هذه الدائرة الضيقة . إذ الفن تعبير عن الواقع من جهة ، وتنفيص عن الأشواق المكبوتة من جهة أخرى ، وتصوير للآمال المرموقة من جهة ثالثة . فإذا نحن حبسنا الفنون في دائرة الواقع أمكن للإنسانية أن تستغنى عنها بالعلم والتشريع . ومن حسن الحظ أننا لا نستطيع أن نحبسها في هذه الدائرة مهما حاولنا ذلك بقوة امداعية أو قوة السلطان ، لأن الحياة نفسها — وهي أوسع من الواقع المحسوس — تطلق هذه الفنون من عقلاها تتهرب عن آفاق الحياة جميعا . إن العلم والصناعة أرجل الإنسانية والفنون أجنتها . وقد تستطيع الإنسانية أن تسير بالأقدام ولكنها لا تحلق بغير جناح .

وقد قرأت لأحمد مرة كلمة يمثل فيها بموسيقى "فاجنر" وكيف اعتمد عليها النازيون في بث روح الحماسة والقوة في نفوس الألمان ، وعدما لهذه المزية أعظم موسيقى عالمية ، فإذا صنع إذن بموسيقى تهوفن وشوبر وشتروس وهي ألوان ثلاثة تختلف في طبيعتها واتجاهها ولكن تتفق في أنها لا تؤدي هذه الوظيفة التي تؤديها موسيقى فاجنر في بث روح القوة والحماسة في النفوس ؟ ألتقى بهذه الموسيقى الإنسانية العالية في عرض الطريق لأنها لا تؤثر تأثيرا مباشرا في أداء الأغراض الحربية والقومية ؟ ولم تخسر الإنسانية حين نلتقي بسيمفونيات تهوفن أو مقطوعات شوبر أو رقصات شتروس في عرض الطريق ؟ إنما تخسر ولا شك أضعاف ما تكسبه من ألف مقال كالذي كتبه صاحبنا في إحدى المجلات !



على أن نظرية "الفن للفن" لا تتعارض مع نظرية "الفن للمجتمع" عند النفوس الرحبية التي تنظر للمسائل نظرة شاملة وتلاحظها من زوايا متعددة لا من زاوية واحدة ضيقة محدودة . فقد كانت الفنون العالية وما زالت تؤدي للإنسانية أنبل الأغراض ، وتسبق كل نهضة علمية أو صناعية بما تفتح من مغاليق النفوس وبما تثير من أشواق الناس إلى الرقي والكمال .

وإدراك الجمال — وهو أسمى هدف تتوجه إليه الفنون بالقراءين — ليس مطلباً سهلاً ، ولا تستطيع النفوس الانسانية أن ترقى إليه إلا بعد أن تجتاز تجارب شاقة ، فإذا وصلت إلى هذا المستوى الرفيع فلن تصبر على مافى الحياة الاجتماعية من قبح يتعارض مع هذا الجمال .

إن النفس التى تدرك الجمال عن طريق الفنون العالية لن تصبر على الظلم يحق بطائفة من المجتمع ، ولن تسبغ الذل يحيط بالوطن والانسانية ، ولن تصبر على الحرمان تجبره طائفة والترف تنعم به طائفة ، إذ أن الظلم والذل والحرمان والترف مظاهر قبيحة لا تتفق مع إدراك الجمال .

إن الفنان الذى يعانى كيف أحب الطبيعة وأعجب إعجاباً حقيقياً بما فيها من مفاتن يعلمنى فى الوقت ذاته حب الحرية ، إذ أن الحرية هى أجل مافى الطبيعة ، وإذ أن الطلاقة هى أتمنى ما فى هذا الجمال . وفنه فى هذا خير وأبقى من دعوة نائرة إلى تحطيم قيود الاستعباد . وإن اللحن الموسيقى أو القلعة الشعرية أو الصورة الفنية التى ترفعى عن العالم الأرضى المحدود إلى العالم الإنسانى غير المحدود ، هى التى تعلمنى فى الوقت ذاته ألا أحقد على أحد وألا أؤذى أحداً لأنها رفعتنى عن المصارعات الصغيرة بين "أفراد إلى الآفاق العالية بين الآباد . وهى فى هذا خير وأبقى من نصيحة خلقية جامدة أو موعظة منبرية جافة .

وحقيقة أن تأثير الفنون عن هذا الطريق تأثير بطيء . ولكنه عميق . وقد تكون الأمم فى بعض الأحيان محتاجة إلى الدعوات المباشرة والتأثيرات السريعة ، فليكن . ولتخصص طائفة من فنانها لتلبية هذه المطالب السريعة ؟ ولكن هذا لا يعنى أن ينصرف الجميع إلى هذه الغاية ، وأن يدعوا الانتاج الفنى الخالص ، وأن يهملوا الجانب الإنسانى الخالد ، ليتغمسوا فى صراع موقوت ، تموت فنونهم فيه بعد حين من الزمان .

إن احصائية عن الفنانين الخالدين فى تاريخ الانسانية تثبت أنهم جميعاً ارتفعوا بفنونهم عن مطالب العصر وحاجات الجيل فكانوا رواداً لعصور جديدة ، وسابقين لأجيالهم المحدودة وقد بقيت لهم آثارهم الفنية الخالصة وفى منها ما كان تلبية لمطالب البيئة ، فلا نذكر لهم إلا للتسجيل والتاريخ ، ولا يحسب لهم منه شئ فى سجلات الخلود .

والدعوة التى يدعوها اليوم بعض الكتّاب المحدودو النفوس الضيقوالاحساس إلى حصر جهود الأدباء فى الصراع الاجتماعى دعوة خطيرة تجب مقاومتها والتنبية إلى خطورتها ولا سيما فى مصر ، حيث تنتشر بين الشبان اليوم بدعة إهمال القديم من الآداب والفنون ، وإهمال الدرس والمطالعة بحجة أن العالم يعيش فى عصر السرعة فليس هناك وقت للدراسة والتحصيل .

فإذا جاءهم كاتب أو أكثر ليقول لهم : لا تقرأوا أدب العاديات ، وهو يعنى بالعاديات آثار شكبير وهاردي وجيتي وشيلر وشيلي وبيرون والنتنيل والمعري وابن الرومي والبحري والعقاد وطله حسين وهيكل وتوفيق الحكيم وأمثالهم ، ولكن اقرأوا الآداب الاجتماعية وانغمسوا في الصراع الاجتماعي وحده ، وتابعوا فقط أخبار الحرب والسياسة ، وأنباء الاختراعات والانكشاف ، فإنما يلبي رغبة في نفوسهم من حيث عدم الصبر على الدرس والمطالعة ، فلا يتهيئون لتقديم ولا جديد ، ولا يخرجون بشيء من أعماقهم القصيرة إلا بأشنان من هنا ومن هناك في عجلة وسرعة لا يستقيم معها درس ولا ينشأ عنها اطلاع .

أقول هذا وأنا أخصص جزءاً ضئيلاً من مجهودي الأدبي لهذا الصراع الاجتماعي على صفحات هذه المجلة وسواها ، ولكنني أتمد في هذا الصراع من معنى الأدبي الخالص ، فهذا المعنى هو الذي يثير في نفسي رغبة الإصلاح الاجتماعي من جميع الوجوه ، ولو أنني قصرت همومي على الصراع الاجتماعي وحده لضبطت حرارة نفسي بعد حين ونضب معين الكتابة ومعين التوجيه حين لا تمدد روافد إنسانية أكبر من المجتمع وأشمل من الجيل .

وهناك دعوة أخرى إلى الشعراء أن يقصروا جهودهم على الشعر القومي وتلبية للمناسبات والأحداث التي تحيط بمصر والعالم في هذه الظروف ، وهي دعوة لا تقل خطراً على القومية والمجتمع من الدعوة السابقة ، ولقد قرأت في مجلة أسبوعية كلمة كتبها في مقدمة استفتاء توجهت به للشعراء "لم لا تنظمون في الأغراض القومية" جاء فيها :

"لقد كان الشعر القومي في مصر إلى عهد غير بعيد يحتل مكان الصدارة بين مختلف الفنون العليا والأدب الرفيع ، فكانت القصيدة ينظمها "شوق" أو "حافظ" أعظم أثرًا في نفوس الجماهير من عشرات الخطب والمقالات. وما يزال الناس يذكرون لشوق قصيدته الخالدة التي يقول فيها :

الام الخلف ينكبو إلا ما وهذي الصبغة الكبرى غلاما ؟
وفيم يكيد بعضكو لبعض وتبدون المداوة والخصاما ؟
ترايمتم ، فقال الناس قوم إلى الخلدلات أمرهمو تراي
وكانت مصر أول ما أصبتم فلم تحس الجراح ولا الكلاما

هل في شعرائنا من فكر في أن ينظم قصيدة بهذا المعنى يوحه الكلام فيها إلى زعمائنا وقطبنا الذين أصبحوا يقتلون على كرسي الحكم ، تاركين كل شيء عداها في الوقت الذي نرى البلاد على أبواب محنة عالمية لا يعرف إلا الله متى تنتهي وتزول ؟ !

أين فيهم من نظم لنا قصيدة ، يصف لنا فيها غارة جوية ويرثي ضحاياها . وانغارات — بحمد الله الذي لا يحمد على المكره سواه — تتوالى هنا وهناك ، في الاسكندرية ،

وفي الاسماعيلية ، وفي بور سعيد ، وفي القاهرة ، وأخيرا في الفيوم ، فتودى بحياة العشرات من الأبرياء وتقضى على مئات من الأسر بالتشرد في العراء ؟

أين فيهم من نظم لنا قصيدة " يتفزل " بها في " رغيف " أو في " جلابية " وهو يرى الملايين من مواطنيه وقد نكبهم غلاء الأسعار وجشع التجار بما لا طاقة لهم به من عرى على عرى ، وجوع على جوع ، فزع عليهم الغذاء بعد أن عز الكساء !

وأحب أن أقول لأصحاب هذه الدعوة : إن مثل هذا الشعر هو أفضل الشعر في تادية الأضرار القومية ، وأن الذين يقولونه في هذه الأيام بحمد الله كثيرون ، ولكنهم ليسوا من شعراء الطليعة ، ولا من الشعراء الذين يحترمون فهم ، أو يعرفون وظيفة الفنون .

ولقد كان الشعر يؤدي وظيفة الخطابة والنصح والإرشاد المباشرين يوم كان الشاهر ممثلا للقبيلة في مرحلة من مراحل التطور الإنساني ، فلما تقدم الإنسان ، ونشأ التخصص صار الشعر عملا فرديا مطلوبيا منه أن يعبر عن نفس فرد لا عن حياة قبيلة . وهذا الفرد الممتاز يعرض لنا الكون والحوادث من خلال نفسه الخاصة ، وليس مطالبا قط أن يكون دفتر تسجيل لحوادث ولا خطيبا واعتزا يهتف بالدعوات القومية والحزبية والخلقية . وحسبه أن يوسع آفاق الحياة في نظر الناس ويصاهم مافي الدنيا من الخير والجمال ، فيثوروا هم على مانيها من القبح والاختلال .



بقيت الأغاني والقصص والروايات ، ويرى بعضهم أن توجه توجيها مباشرا لمعالجة أمراض المجتمع ، ولست أعارض في أن يتولى بعضها هذه المهمة المحدودة ، ولكن ينبغي أن يبقى جانب منها حرا لأداء رسالة الفن الخالصة .

ولكن ينبغي هنا أن نقول : إن معظم ما يذاع من الأغاني وما يعرض من الروايات ويقرأ من القصص مؤذ للأخلاق وللنظرة الانسانية ، ويجب أن تقوم عليه رقابة بصيرة لا يكون المسيطر لها في الرفض والترخيص هو التوجيه الخلق والاجتماعي ، بل يكون هو تنقية هذه الأغاني والقصص والروايات مما يؤدي الذوق الانساني في لفظه أو أدائه ، ومعظم ما يذاع يؤدي هذا الذوق الإنساني بغض النظر عن المجتمع الحاضر وعن الأخلاق المتعارفة .

وأقرب ما يفسر هذا الإجمال أن عرض عاطفة الحب وهي عاطفة إنسانية رفيعة في تلك الصورة الوضيعة التافهة التي تبدو في الأغاني والأفلام المصرية والقصص الرخيصة الموضوعية هو تشويه لشعور إنساني كريم تنبغي صيانتها ورفع مستواه .

وهكذا يجب أن ترتفع النظرة إلى العواطف الانسانية ، ولولم نحصر نفوسنا في المجتمع الحاضر والبيئة المحدودة والتوجيه المباشر الذي نقرر أنه ليس من واجب الفنون .